Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 01:3 (1965)

السنـــة و مكانتها فى الاســـلام

بقلم السيد محمد يوسف

السنة و الكتاب

لقد جاء النبى ﷺ برسالة . واتخذت هذه الرسالة ، بإرشاد من الله شكلاً معيناً تعرف بالسنة أو سنة رسول الله ﷺ . والإرشاد بالنص عن طريق الوحى القرآنى إنما أوجد الأساس الضرورى والإطار اللازم لهذه السنة . ومع إمكان التمييز بين القرآن والسنـــة بدون شك ، يستحيل نزع الواحد منهما عن الآخر جوهريا . لأن السنـــة هى ، على كل حال إمتثال فى شكل محسوس لمشيئـــة الله (١) . إن الشكل المحسوس ، والصورة الواقعية له الحق كل الحق فى الإستئثار بمدارك الإنسان ولا يمكن الإغماض عنه حين نحاول فهم روح الإسلام ومحتواه من القيم العليا ، إن هذا التحول من الكتاب المجرد المستقل عن السنة إلى السنة الراجعة إلى الكتاب يسبب إختلافا أى إختلاف فى الفهم للتطورات فى الشريعة الإسلامية من الناحيتين العملية والنظرية ، وأنه أيضاً يسبب إختلافا حيويا فى نظرتنا إلى مسئلة الإجتهاد بالنسبة إلى الأوضاع والظروف الناشئة من تعقيدات حياتنا الحاضرة .

لتبرير موقفنا هذا يجب أن نعتمد على النقل اولاً و على العقل الطبيعى البسيط ثانيا .

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

١ ــ النقل

إن القرآن يتكلم ثمان مرات فى سياق بعثة الأنبياء ، عن " الكتاب والحكمة " فى نسق واحد ويستعمل فى المرة التاسعة تركيب "آية الله" بدلاً من " الكتاب " مع " الحكمة " (انظر الملحق) . والحكمة تعنى صحة الرأى ، كما أنها تظهر وتتجسم فى استقامة العمل (٢) . ومن الواضح أن الحكمة هى الميزة الأساسية للنبوة ، أى من شئون الأنبياء و وظائفهم أن يكونوا مهتمين بتكوين الرأى وتخليده فى أساليب السلوك الحقيقية ــ أى الحكمة المتجلية فى العمل . حتى وهم أصحاب الكتب منهم لاتزال موجهة إلى نفس هذه الغاية الكبرى . وفى هذه الحالة الثانية فالكتاب هو يتجسم فى الحكمة من غير أن تكون الحكمة عرضا طارئا للكتاب . وأهمية الكتاب هى فى الحقيقة أنها تساعد فى تمكين الحكمة وتحقق لها القداسة والصفاء ، فالكتاب والسنة ، بكلمات أخرى ، يمثلان الكل العضوى . والكتاب ليس موجودا فى أوراق مجلد فحسب ولا فى تلافيف ذاكرة القرآء بل أنه يوجد فى أشكال الحكمة المعززة المحفوظة فى كلمة الله السامية المستحقة بالذكر . إن التدرج من الكتاب إلى الحكمة لابد منه . ونزع الواحد من الآخر هو إتلاف وجودهما المشترك ــ إن الحكمة تنفجر من الكتاب والكتاب ينمو فى الحكمة ، إذا كان الأصل ضروريا لحياة الزهر والثمر ، فالجذع والأغصان والأوراق أيضاً لابد منها لبقاء الأصل . والذى اقتنع بملكه الأصل ولم يملك الشجرة الكاملة بشكلها الطبيعى ولونها الطبيعى ورائحتها الطبيعية وذوقها الطبيعى وإنتاجها فإنه سيقتل الأصل لكونه أبتر . ولربما الجهد ليس ضروريا فى توضيح الحقيقة أن الحكمة ، بجميع قرائنها يجب أن تتساوى كاملة بالسنة التى هى نموذج السلوك المطابق بتخطيط الكتاب .

٢ ــ العقل

إن العقل الإنسانى الطبيعى أيضاً يعتبر الشكل الحقيقى كشئ نهائي قطعى فى مسئلة الهداية السماوية . فإن الأقدار تختص بحدود " المعروف" أى العــلم الوجدانى أو البديهى عن الخير والشر ، ولا يشعر الإنسان بالتحير والإرتباك والعجز إلا فى تعيين شكل فضيلة خاصة فى ظروف مخصوصة . وفى نفس اللحظة التى يتردد ويتذبذب فيها العقل الإنسانى الطبيعى ويشعر بعدم صلاحيته فى الإختيار النهائى ، فيعرف الإنسان بإختيار الله فى شكل الممارسة الحقيقية الناشئة فى ظل نبي ، المتشرفة بصحبته وقربته ــ فممارسة فضيلة الواقعية ، بكل تفصيلات الشكل والاسلوب ، تمثل المـاعدة الخارجية الحقيقية للإنـان فى مأزقه الحرج ، التى تصور له شكلا وهيئــة لممارسة الأقدار الوجدانيــة فى حياتــه الواقعية ، ومن واجب المؤمن أن يخزن ويتمسك تماما بقواعد السنة فإن أشكال الفضيلة فقط ، ولا غيرها ، تكون فن المذهب الحقيق . عند ما نعجب بعمل فنى ــ طراز لباس أو رسمه مثلا ، فهل لا نركز فكرنا على الشكل الــذى نجح الفنان فى ابتكاره وتدبيره لتعيين الأقدار المجردة للجمال و الرشاقة فى القماش ؟ وحالما نرفع النظر عن الهيئة المجموعية هذه هل يبقى لنا سوى قطعة نسيج ما لها مصرف ما لم يكن لها شكل ؟ فنبذ الشكل يسلط أهميته أكثر على إدراك الإنسان . ويشعر الإنسان أن الشكل هو الذى يحير العقل فى الحقيقة .

إن عدم الإستفادة من الشكل ، مقتنعا بوجدان محض، يساوى عدم الإستفاده من الدين نفسه ، ولا يجب أن ننسى أن الوجدان يستنير من الأقدار المجردة فقط ــ وأنه أكثر إعتمادا بكثير من التفكير العقلى فى إقليم التجرد .

أما عند إختيار جازم لشكل فى الممارسة الواقعية فتتجلى جرأة كلا العقل والوجدان ووقاحتهما تماما . فإن ليس هناك إذاك غير أمرين ــ الإعتراف بكل العجز والتواضع أن إختيار الشكل يجب تعيينه بواسطة السنة ، أى بواسطة رجل لا ينطق عن الهوى ولا يتصرف إلا بارشاد الله ، أو التجاء إلى العربدة والإثبات أن الأشكال ما لها كيان جدى ، فالطريقة الأولى هى طريقة الدين والأخرى هى طريقة اللادينية . إن " الطبيعية " و " الإحيائية " و " الأحرارية " هى وجهات النظر اللادينية جوهريا ، ليس لأنها تنكر أقدار الحياة الأخلاقية فحسب بل أيضاً لأنها تحط من قدر أشكال الفضيلة المخصوصة المعززة بواسطة الدين ، فحالا تنقلب هذه المواقف اللادينية مضادة للدين لعدم تحملها الأشكال الدينية . فإن اللادينية من جهة تطالب من الدين القبول بجميع أشكال الفضيلة ، وتحسب فى نفس الوقت أى شكل مخصوص للدين حرما ولعنة على نفسها من جهة أخرى وهذا لإن الأشكال الدينية المعينة تؤمن " بالتوقيف" أى التعليمات السماوية الجازمة كما أنها تمتاز من إدراك الإنسان الداخلى . أن مادة التوقيف ، باعتبار الشكل الحقيقى ، هى إمتياز عظيم للدين وأى هجوم عليه سيكون هجوما على الدين نفسه . وهذا هو سبب إنحطاط المذهب الطبيعى للمعتزلة (الطبيعة عارية عن التوقيف) وأيضاً سبب فشل الفلسفة على مر العصور فى خدمة الإنسان ــ بخصوص ترويج الفضيلة العملية على أى مستوى يقارن المستوى الدينى ــ أيضاً هو نفس غياب التوقيف بخصوص الأشكال .

رأى شاه ولى الله فى أهمية الشكل

أحسن تأويل لوجهة النظر هذه يوجد فى " حجة الله البالغة "

لشاه ولى الله الدهلوى . فى رأيه كل عمل عينته السنة (بتأييد الكتاب) يكون شكلا معينا ثابتا (شبح ، قالب ، مظنة) تخلل فيه روح أو فكرة عامة مجردة (أصل) أو إعتبار أخلاقى سام (مصلحة) . إن فهم الروح و تقديره ، ألذى هو موضوع علم أسرار الشريعة ، لا يجيز أى إحتقار للشكل ، فإنه بالأحرى يوكد إحتفاظا وتمسكا قويا بـــه . إن العلاقة بين الروح والشكل قوية وراسخة ولازمة . فإن الشكل هو الشخوص المثالى والوجود الشبحى للروح . والواحد يعنى ويمثل وينيب عن الآخر كالكلمة ومعناها ، وكالفظ والخط ، وكالرسم والجسم (٣) . إن القدر مخمر فى طينة الإنسان ، فكشف نفس الشئ (القدر) بواسطة الوحى ليس بلطف أما اللطف الحقيقى هو تعيين حدود الأعمال و معاييرها التى تجسم الأقدار وتحتفظ بها وتروجها (٤) . وتحقير مادة اللطف الممتازة هذه أو نزعها من القالب متين لدين عملى أكبر خطيئة ممكنة يرتكبها الأنسان .

المصلحة كما تميز من العلة

يعمل شاه ولى الله تمييزا حادا ومؤثرا جـدا بين المصلحة (إعتبار مجرد للقدر) وعلة (السبب المؤثر أو الحالة المسئولة للقضاء) فرجل فى السفر مثلا مسموح أن لا يصوم . فى هذه الحالة يمثل الإعتبار للسهولة والإجتناب من مشقة زائدة مادة القدر للقضاء ولا يجب أنها تلخبط بسببها المؤثر أو حالتها المسئولة ، أى السفر ، وليس هناك مجال شك فى أسبقية مادة القدر الجوهرية ، فإنها تحسن نوع العمل ، أما العمل فتعينه وتشكله الحالات المخصصة له . فالنتيجة المهمة اللازمة من الذى سبق هى أن التشبيه فى المثل المذكور يجب أن يؤسس على العلة وليس

على المصلحة ــ أى على حالة السفر المحسوسة وليس على اعتبار الإجتناب من المشقة الزائدة . وتعرف مادة القدر فى شكل واحد معين فقط كما تعرف الروح الإنسانية فقط فى الجسم الإنسانى . والشكل الواحد ليس كمثل الآخر . فليس هناك مجال توسيع التشبية بالنسبة إلى الأشكال . فلاداء الفريضة يجب أن تكون الصلاة فى شكل معين . والإتصال بالله بأى شكل آخر ليس بكاف لأن مادة القدر لا تقاس بالمقاييس ويمكن الإشتباه فيها ، فيجب أنها تنظم وتعرف بأحوال خارجيـــة رسمية مناسبة حتى يفهمها العامى بسهولة ويراها بوضوح ويجب أيضاً أنها تسمح الإختبار والمجازاة (٥) بدون إعتراض وأخيرا ، فإن المجازاة تعتمد أساسياً على شكل الفعل ، وبـــدون تكميل الشكل باسلوب معين مفروض لا يمكن إعتبار الفعل أبدا . ولا يمكن التنقيب فى الروح الفعال وراء عمل ما إلا إذا كان موجوداً فى شكله المناسب وصورته الملائمـــة حتى تقدر سجيته . والحقيقة ــ أن الروح فيه قابلية التأثر من التحريك وأنه صعب الإدراك فى خباياه العميقة فى تجاويف القلب ــ تؤيد المؤقف المذكور بخصوص كون الأشكال إختبارا قطعيا للجزاء والعقاب .

إن هذه النظرية مشتركة طبعاً بين سائر المعتقدات الدينية ويمتاز العلماء ببصيرة فى العلاقة اللاهوتيه اللازمة بين المصلحة أى مواد قدر الفعل والشكل المعين لـــه بواسطة السنة . أما العوام فإنهم قانعون بإنجاز أعمالهم بطريقة مسنونة . ولكن أقلية أصحاب العقل والنظر لم تزل موجودة فى جميع أدوار التاريخ الـــذين بعد التعرف على " المصلحة " وراء القوانين الدينية بدؤا الإشتغال بنبذ الأشكال المعينة كشئ طفيف . فكان الشكل عندهم كقشرة يجب أن تكسر حتى تخرج منها نواة القدر . أما

إذا قلبنا التشبيـــه فإن النواة تحتاج لنموها وحفظها قشرة من نوع مخصوص لا يسمح فيها أى تبديل مهما كان . ولم يستطع هؤلاء العقلاء أن يفهموا أن إختراع الشكل المناسب لنمو الأقدار الفطرية وحفظها يستلزم علما إلهيا محيطا بكل شئ وإن هذه الأقدار لا تستطيع أن تعيش وتحتفظ بفاعليتها وتاثيرها بدون أن يديرها العلم الكلى . وأى شكل آخر يعززه العقل الإنسانى لابد أن ينقصه الكمال . فالحياتة بالسنة لا تعنى إلا هرجلة فظيعة وفسقا بوهيميا فى الأقدار الروحانية والأخلاقية . وبكلمات شاه ولى الله « فإن معصية المناهج مفسدة عظيمة من جهة كونها قدحا فى السنة الراشدة وفتحا لباب الأثم وغشا بالنسبة إلى جماعة السلمين وضررا للحى والمدينة والإقليم » . (٦)

ومن بين العقلاء الذين استهزءوا بالأهمية العظمى لأشكال السنة كانوا المعتزلة والفلاسفة الوقحين . ولقد أشرنا سابقاً إلى موقفهم بخصوص التوقيف . أما الصوفية فعندهم عذرا أوضح ليحتقروا أى شئ يتعلق بالإعتدال والرشد والنظام فى الحياة الحقيقية على وجه الأرض . وكل هذه الإنحرافات عن الموافقة العمومية تحولت رأسا فى الأهوال وجب قمعها بقوة ــ ليس بقوة حكومية فحسب ، بل أيضاً بقوة إرادة الشعب العمومية . والخطر للحياة الإجتماعية والأخلاق الناتج من المحاولات على التلاعب بالأشكال موضح بصرامة فى نهاية قصة « أبسال وسلامان » . (فى حى بن يقظان لابن طفيل) . إن زوال الوهم هذا أوجد وجهة النظر المتأخرة أن الفلسفة يجب أن تتحدد للخواص المعدودين كما بينها تدفق المؤلفات بعنوان " المضنون به على غير أهله " .

تحدى العصرية

لا تزال العصريـــة ، التى يحافظ دعاتها على سكوت مشئوم عن تعريفها الصحيح ، نفس التحدى القديم للسنة فى زى جديد " بفرق أنها هذه المرة مصحوبة بطرمذة الإنجازات العلمية والقوة الصناعية والفنية . ولكنها ، على كل حال ، تعتبر حقيقة واضحة جلية ، لا مفر منها ، مقدرة للسيادة العليا فى منتصف القرن العشرين . فإذن البقاء للدين و إجازة الحياة له فى هذه الظروف ستظهر رخصة كريمـــة حقا فإنه لا يستنجد إلا ليطلب منه أن يعدل نفسه على قامـــة الطلبات الجديدة والإقتضاءات الحدثية . وليس الأسلوب المقترح لهذا التعديل إلا نبذ الأشكال القديمـــة وتقدير الأقدار من جديد بتحكم واستبداد حسب مقتضيات العصرية نفسها . ولا عجب أن عنفوان هجومها موجه ضد السنة التى هى مخزن الأشكال والأنظمة والدساتير . ولا يفرق لو يحتفظ بالولاء بالسنة طالما اعتبر غلاف للأقدار المدرجة . فبتمام السهو كشف ذات مرة مشير التبشيرية المسيحية للإسلام الجديد الغطا عن السر عند ما شكى بحنان مضحك ومثير الغضب أن المسلمين كانوا أكثر تكريسا للإسلام من الله ـــ إن العصرية محاربة ضد حدود الإسلام وممارساته وأنظمتة . فإذا استخفت قداســـة الممارسات مثل قطع يد السارق ورجم الزانى المتزوج فيمكن تخفيف كراهة قلبية عامة للسرقة والزنا ويسهل قبولها بكل راحة ورغبة . فليدعوا الأتراك بالإحتفاظ بمتانة إيمانهم بالإسلام متمسكين فى نفس الوقت بالعصرية ولكنه لا يمكن إلا بكون الملك لا دينيا وباستبدال الشريعة بكتلة القوانين السويسرية والأخرى . فلنسأل أنفسنا سؤالا بسيطا حتى ننهى هذه المسألة وهو هذا : هل زاد فينا شعور الكراهة للسرقة والزنا بتركنا شكل العقاب المعين بواسطة السنة لتربية هذا

الشعور الكريم أم نقص ؟

ومثال نموذجى لتعديل الإسلام للعصرية يوجد فى فتوى التيونيسيا للشيخ محمد الماهيرى ، المفتى السابق لسفقص (Sfax) المؤرخ ، ١٩ فبراير ، ١٩٦٠ م ــ انظر (Die Welt des Islams NS, Vol. V11, pp 54 — 57) فإنه يستلزم التمسك بقدر توفير المشقة الزائدة فقط كما يستنتج من حق مسافر أن لا يصوم ويسمح أن يطبق هــذا القدر حيثما أريــد على أمر العمال والصناعين حتى ينكمش قانون الصوم إلى مشيئة كل محتال كسول . والجدير بالإلتفات أن شاه ولى الله يقدم نفس المثال بتكرار ليميز بين المصلحة والعلة ويحذر ضد المحاولات على التضور من شكل السنة المعين فى إتباع روح القرآن الأثيرى . إن بصيرة شاه ولى الله فقد كانت نبوية تقريباً فى إدراكه سلفا بذهنيــة العصرية فى الإسلام . فإنه يصرح أنه إذا قورنت مشقة الزراعة والحدادة بمشقة السفر فتحبط إطاعة الله وتلغى . وإذا اعتبرنا العناء والتعب مضرا ومستحقا للنبذ فلا يبقى عندنا أى إختبار مهما كان للتسليم لإرادة الله (٧) .

والحق أن شاه ولى الله قد تلمح من الشافعى الذى كان معروفاً بشدته فى الإنذار والوشاية ضد الإستحسان فإنه أعلن « من استحسن فإنه أراد أن يكون شارعاً » . وضح هذا التصريح السديد الشعبى وعززه بقوله : « والله لئن أخذتم بالمقاييس لتحرمن الحلال ولتحلن الحرام » (٨) . هذا العنف والتسمم من قبل عالم مهذب كالشافعى يمكن فهمه فى سياق تتبع الأقدار المضمرة فى الإستحسان وعواقبه لسلامة السنة . وإنه يمثل فشل العقل الإنسانى الفطرى وخطرا جاريا لسيادة الشريعة .

وأخيراً فإن تاريخ الإرتقاء الشرعى فى الإسلام مختص ببحث أمين

مستقيم للسنة ، وأنه مضاد تماما بتحريش محبي التجدد بالسنة . أن المتشرعين المسلمين القدماء كانوا مهتمين بتطبيق الحياة على الدين وتوفيقها به . أما مهمة محب التجدد هى التعنى فى توفيق الإسلام بالعصرية . فى اللحظة التى ينقلب فيها هيكل السنة وينهدم ، سيموت الإسلام بروحة النقية وأقدارة السامية الفاخرة وسيدفن فى الحطام .

ملحق

(راجع " الرسالة " للشافعى (طبع أحمد شاكر) مقالة : ٢٤٥ ــ ٢٥٧) .

١) وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاء كم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه (٣/٨١)

٢) ربنا وأبعث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم (٢/١٢٩)

٣) كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم و يعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون (٢/١٥١)

٤) واذكروا نعمت الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به (٢/٢٣١)

٥) ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل (٣/٤٨)

٦) وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل (٥/١١٠)

٧) فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما (٤/٥٤)

٨) وأنزل الله عليكم الكتاب والحكمة وعلمك مالم تكن تعلم (٤/١١٣)

٩) واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحِكمة (٣٣/٣٤)

لتلاحظ هاتين الآيتين حيث الحِكمة تمثلها الفضائل والحسنات :

١٠) ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله (٣١/١٢)

١١) وقضى ربك ألاتعبدوا إلاإياه وبالوالدين إحسانا (. . . .) ـــ ذلك مما أوحى إليك ربك من الحِكمة (١٧/٢٣، ٣٩)

لتعتبر الكلمات المحظظ تحتها فى هذه الآية الكريمة أيضاً مساوية " للكتاب والحكمة " :ـ

١٢) وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا (٤/٦١)

ملاحظات

(١) راجع " الرسالة " للشافعى (طبعة أحمد شاكر) ، مقالة : ٢٣٥ ـــ ٢٥٨

" وسنة رسول الله مبينة عن الله معنى ما أراد . . .

(٢) انظر تفسير الخازن للآيات المقتبسه فى الملحق ولاسيما الآية رقم ١٠ حيث وصفت الحكمة " كالعلم والعمل به ولايسمى الرجل حكيما حتى يجمعها " ـــ تفسير الخازن طبع القاهرة سنة ١٣٣٨هـ مجلد ٣ ـــ صفحة ٤٤٠ ـــ

وبهذا الخصوص التركيب العطفى " الكتاب والحكمة "

يجب أن يقارن بتركيب عطفى آخـــر "آمنوا وعمـــلوا الصالحات . . . " إن العلاقة بين الإيمان وحسن السلوك قد كانت من أكبر المسائل المتنازع فيها فى الإلهيات . وعلى الرغم من المهارة والبراعـــة فإن المحاولات على عزل الواحد من الآخر فلم تنجح . والسبب الأساسى لهذا الفشل هو أن الإيمان لا يوجد ولا يصادق عليه إلا بواسطة أشكال مخصوصة و معينة لحسن السيرة .

(٣) حجة الله البالغة (مطبع المنيرية) بالقاهرة ١٣٥٢ هـ (: ٩٢)

باب أسباب المواخذة على المناهج

(٤) المرجع السابق ١ : ١٢٩

(٥) المرجع السابق ١ : ١٢٠ ، ٨٧

(٦) المرجع السابق ١ : ٩٢

(٧) المرجع السابق ١ : ٩٤ ، ١٠٣ ــ ٤

(٨) المرجع السابق ١ : ١٢١ ــ (من أسباب التحريف والإستحسان) وصفحة ١٤٧ ، فقرة ٢